

يهودية دولة إسرائيل

رجا إغبارية*

حين نودّ معالجة هذه القضية، علينا أولاً العودة إلى تعريف دولة إسرائيل، كما عرفها مؤسسوها من قادة الحركة الصهيونية، وكذلك علينا العودة إلى قرارات الأمم المتحدة التي قامت بموجبها دولة إسرائيل، وكيفية تطرّق هذه القرارات إلى الفلسطينيين الذين تشبّثوا بأرضهم ووطنهم، وفُرضت عليهم المواطنة الرسمية الإسرائيلية، أي نحن "مواطني دولة إسرائيل"! إنّ ما ترمي إليه الإجابة عن هذه الأسئلة هو توحيد المعرفة بشأن جوهر وحقيقة دولة إسرائيل كي نمنع الخلاف في ما بيننا حول التاريخ، بصرف النظر عن الاستنتاجات السياسيّة الآنيّة والمستقبلية.

إنّ الرجوع إلى مؤتمر بازل في نهاية القرن التاسع عشر، الذي أقرّت فيه الحركة الصهيونية مكان إقامة "البيت القومي اليهودي"، يوضّح دون أيّ لبس أنّ الحركة الصهيونية -بصفتها جزءاً من الاستعمار الأوروبيّ، وتمثالاً مع رؤية وزراء بريطانيا وفرنسا في ذلك القرن من التاريخ- قرّرت إقامة الكيان الكولونياليّ الإسرائيليّ على أرض فلسطين وعلى أنقاض الشعب الفلسطينيّ، مستخدمة مسوغات أيديولوجيّة دينيّة يهوديّة تزعم أنّ أرض فلسطين هي أرض إسرائيل، وأنّ هذه الأرض فارغة وليس فيها أيّ شعب، وأنّ "اليهود" هم "شعب" بلا أرض!

بعد ذلك، بدأت الحركة الصهيونية بتنفيذ مشروعها الكولونياليّ، الذي أصبح بعد عام 1917 مشروعاً كولونيالياً بريطانياً تنفيذياً لوعده بلفور، وزير خارجيّة بريطانيا، التي كانت تستعمر فلسطين. وقد عمل الطرفان معاً حتى نضجت موازين القوى المحليّة والدوليّة، فأعلنت الأمم المتحدة عن حقّ اليهود في إقامة دولة عبريّة على أرض فلسطين، حيث جرى إعلان إقامتها من قبل الحركة الصهيونية في الخامس عشر من أيار عام 1948.

لقد اتّضح من قرار التقسيم، الذي يتحدّث عن دولتين لشعبين، أنّ دولة إسرائيل هي دولة عبريّة- يهوديّة. لكن هذا القرار اشترط على الدولة العبريّة "احترام" حقوق المجموعة القوميّة العربيّة الفلسطينيّة التي رفضت التهجير الذي كان سيجعل مصيرها ماثلاً لما حصل لسائر أبناء الشعب الفلسطينيّ الذين استطاعت الحركة الصهيونية طردهم من ديارهم ووطنهم وتحويلهم إلى لاجئين.

بشيء من التعميم، يمكن اعتبار الـ 17% من الفلسطينيين (الذين أصبحوا -على نحو قسريّ- مواطنين في دولة اليهود) عاملاً معطّلاً لمسألة "نقاوة" الدولة اليهوديّة من "الأغيار" -العرب، بل إنّ إسرائيل موضوعياً هي دولة ثنائيّة الإثنيّة أو القوميّة، فأصلاّبنا على هذه الأرض وتمسّكنا بها حالاً دون "نقاوة" دولة المهاجرين اليهود بصورة فعليّة، رغم كلّ القرارات الرسميّة للأمم المتحدة واعتراف معظم دول العالم بإسرائيل -بما في ذلك دول

عربية- وكلّ من اعترف بقرارات الأمم المتحدة أو عمل بموجبها (ويشمل ذلك منظمة التحرير الفلسطينية التي اعترفت بإسرائيل من خلال اتفاقيات أوسلو أيضًا!).

لقد تنبّهت إسرائيل إلى هذه القضية، وذلك حين أيقنت أنّ الجانب الرسمي لوجودها كدولة يهودية مشوّبٌ بنقص عمليّ يتمثل في وجود 17% من العرب فيها كمواطنين، وهو ما دفع الكنيست إلى تعديل أحد قوانينها الذي يجيز التمثّل في الكنيست، حيث اشترطت على القوائم العربية الاعتراف بأنّ إسرائيل هي دولة يهودية (وذاك ما عُرف لاحقًا بـ "إصحاح" ميعاري).

وكانت إسرائيل قد طرحت هذا الموضوع، مؤخرًا، على أمريكا في مؤتمر أنابوليس وفي خطاب نتنياهو في جامعة بار إيلان لتحقيق هدفين إستراتيجيّين من وراء ذلك: شطب موضوع عودة اللاجئين الفلسطينيين إلى ديارهم وفتح ملفّ تهجيرنا من داخل منطقة الـ 48 وإحاقنا بـ "الدولة الفلسطينية" التي يتفق العالم على إقامتها، بما في ذلك أمريكا وإسرائيل من حيث المبدأ والمشروع! أمّا تنفيذ المشروع فسيتمّ إذا تحققت إستراتيجية إسرائيل وأمريكا من خلاله، حيث أصبحنا مطالبين نحن -كشعب فلسطينيّ بعامة، وفلسطينيّ الـ 48 بخاصة- بتحديد موقف مبدئيّ وسياسيّ فعليّ، لا من مشروع يهودية الدولة فحسب، بل كذلك من الدولة اليهودية بأكملها. فعندما يتحوّل موضوع حلّ الدولتين إلى مشروع إمبرياليّ تمامًا، كما عبّر عنه قرار التقسيم، وتنبّاه إسرائيل وأمريكا، فإنّ علينا رفضه على نحو واضح لا يقبل أكثر من تأويل؛ وذلك أنّه على أولئك من بيننا الذين رفضوا مشروع يهودية الدولة، معتبرين أنّ ذلك لا يتناقض -من حيث المبدأ والتطبيق- مع اعترافهم بإسرائيل، وكذلك بشرعية وجودها كدولة، وأرادوا إبقاء "معركتنا"، معركة هؤلاء، حول المساواة وديمقراطية الدولة اليهودية- دولة إسرائيل- عليهم أن يعرفوا أنّ هذا الطرح لم يعد كافيًا أو "واقعيًا"، لأنّ إسرائيل الرسمية والفعلية تقول لهم ولنا جميعًا: جهّزوا أنفسكم للرحيل! ارحلوا إلى دولكم فلسطين في الضفة والقطاع، فهذه دولة اليهود كما تعترفون بها وحسب قرارات الأمم المتحدة! هكذا تمامًا فسّرت وزيرة خارجية إسرائيل تسبيبي ليعني مفهوم يهودية الدولة أثناء مؤتمر أنابوليس...

قد لا يصدّق البعض ما يسمع ويقرأ ويواجه من مشاريع صهيونية أمريكية يوميًا ويرى الممارسات ويعيشها كلّ ساعة وكلّ يوم. فهل يُعقل أن نبقى متمسكين بثوابت، في حين تقوم إسرائيل بنسف بطيء، رسميًّا وفعليًا، لكلّ ما اعتبره البعض أساسًا لمواقفهم؟! ألم يحن الوقت لإجراء مراجعة تاريخية، في هذا الطرف التاريخي، وفي ظلّ موازين القوى الجديدة التي أعادتنا إلى خاتمة التشريد عشية النكبة؟! وهل تريدوننا أن ننتظر حتى تبدأ عملية التهجير حين لا ينفع الندم؟!!

لذلك فإننا نؤمن (نؤمن، لا نظنّ) أنّ رفض يهودية الدولة لا يختلف كثيرًا عن رفض الدولة اليهودية الذي تبنته حركة أبناء البلد منذ نشأتها، بغض النظر عن استثناءات محاولاتنا للتعاطي مع "الواقع" المفروض علينا، في حقبة قصيرة خلّت، ومن موقع اعترافنا بهزيمة مشروعنا التحرريّ الوطنيّ كشعب فلسطينيّ نحن جزء منه ومن

قضيتته الوطنية ومن حلها الإستراتيجي لا محالة، مهما طال ليل هذا الاحتلال والكابوس القسري الصهيوني.

إننا نعيش هذه الحقبة التاريخية التي اضطرّ فيها أصحاب حلّ الدولتين في منظمة التحرير عبر المفاوضات السلمية أن يعلنوا فشل مشروعهم وأن يعترفوا بأنّ إسرائيل لا توافق على أيّ حلّ، بل هي ماضية في قضم وتهويد كلّ أرض فلسطين التاريخية، المحتلة والمحاصرة، بل وتلك التي من المفترض أنّها تحمل الهوية المدنية الإسرائيلية.

إنّ الواقع الحقيقي "الجديد" يؤكّد صدق وواقعية طرحنا للحلّ الديمقراطيّ العلمانيّ للعرب واليهود في فلسطين التاريخية، مهما تضمّن ذلك من صعوبات وحروب قد تقوم حتّى يسارع اليهود قبل العرب لتبني هذا الحلّ. كذلك ائضح أنّه، بعد كلّ ما مرّ علينا وعلى شعبنا من مأس وتجارب، لم تبقَ خيارات كثيرة أمام مواقف بعض الجهات الحزبية العربية -التي تعمل في إسرائيل-، تلك التي تصرّ على إمكانية "إصلاح" دولة اليهود من الداخل عبّر دمقرطتها بدون يهوديتها، أو عبّر تحقيق "المساواة اليومية والقومية"، أو حتّى "أسلمتها"، إلا الإقرار فعلياً ورسماً بيهودية دولة اليهود وقبول المواطنة الإسرائيلية بكلّ ما تتطلبه استحقاقات الأسرلة، حتّى لو وصلت، في نهاية المطاف، إلى الخدمة العسكرية الإسرائيلية، سواء بقصد أم بغير قصد أو حتى بمعارضة هذه الاستنتاجات!

إنّ هذا الأمر يقتضي من القوى العربية الفلسطينية كافة، دون استثناء، أن تُغلب المصلحة الوطنية العليا وإدراك حتمية مواجهة ملفّ مستقبلنا على أرض وطننا كمجموعة قومية منظمة ومستعدة للكفاح والتضحية، بدلاً من رهانات التعايش بصيغته الاحتلالية العنصرية القائمة، الأمر الذي يهدّد بقاءنا على أرض وطننا الذي لا نقبل وطناً سواه.

* رجا إغباريّة - هو رئيس حركة أبناء البلد